2

يا أمريكا لمي فلوسك .....
عبد الناصر بكره يدوسك

obeikan.com

obeikan.com

عندما علت الصيحة ، صيحتنا ، تطالب الحشود المتظاهرة ، في ١٠ يونيو ١٩٦٧ ، بالهجوم على السفارة الأمريكية ، كانت خطواتنا الشابة قد سبقتها وأدت إلى تجمعنا حول مبنى السفارة الأمريكية في جاردن سيتي « على بعد أمتار قليلة من مجلس الأمة ، الآن مجلس الشعب » .

لم يكن أحدنا يعرف اسم الآخر ، لكن كلًا منا كان يفهم قصد الآخر ونيته ، في إعطاء الأمريكيين درسًا بليغًا ، اتجهت أعيننا ضاربة في كل اتجاه ، مغروسة أيضًا في عقول من حولها ، في عقول بعضنا البعض ، وكانت كل الأعين تتساءل : ماذا نفعل بالسفارة ؟!.

وعلى غير اتفاق مالت الأعين إلى الأرض بحثًا عن الطوب ، بينما الحناجر تهتف بالويل للأمريكيين ، وفجأة صك صوت مدمدم آذاننا ، واختلطت الدمدمة بالصهيل المجروح ، وارتفعت أعيننا لنفاجأ بفرقة من الخيالة تهاجمنا ، بل تدهمنا دون أن تعطينا فرصة لاستيعاب الصورة ، والموقف ، كانوا قد أطلقوا علينا الخيول ، والقنابل المسيلة للدموع ، وكأن مآقينا كانت تنقصها الدموع في تلك الساعات ، وكأن أرواحنا وأجسادنا كان ينقصها شيء غير النكسة ليدهمها ، بل ويهرسها .

أذكر ـ الآن ـ أنني لم أخف في حياتي مثلما خفت في ذلك اليوم ، في تلك الساعة ، لقد ضُربنا بالرش والرصاص الحي ـ فيما بعد ـ ونحن نتظاهر ، لكن الأحصنة تخيف أكثر .

آه من الحصان.. آه .

الحصان وهو يهاجمك يكون رأسه في اتجاه بينما يندفع جسده في أي اتجاه آخر ، وعندما يشب أمامك على قائمتيه الخلفيتين ، لا تعرف بالضبط أين ستنزل رجلاه المثنيتان عند الركبة وتحت الركبة ، بحافريهما اللذين ارتفعا إلى مستوى صدره العالي

بمسافة .

رحنا نعدو متخبطين في الجياد وفي أنفسنا ، نقف ونقوم لندفع فلا نرقد !! تنزل علينا رجل الحصان ، وكأنها ثقل « ونش » يسقط من عل « الآن أفهم الصورة التي رسمها شاعر العرب الكبير جدًا امرؤ القيس عن حصانه ، بعد أن رأيت حصان الحكومة ، أفهم الآن كيف يكون الحصان : مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معًا ، وأيضًا كيف يكون : كجلمود صخر حطه السيل من علٍ !! » .

عندما وصلنا إلى شارع قصر العيني مرة أخرى والأحصنة في أثرنا ، كان الشعب يهتف : « يا أمريكا لمي فلوسك .... عبد الناصر بكرة يدوسك » ، وكانت دموع الغضب تتساءل في أعيننا الصغيرة : هذا هو رأي الشعب فلماذا يحمون سفارة الأمريكان ؟ تصورنا وقتها أن الشعب كان في وادٍ وأن الحكومة كانت فوق الأحصنة .

أذكر أنني ألفت يومها ، وأنا ملقى على الأرض مستندًا بظهري إلى ضريح الشيخ ريحان قصيدة ضد عبد الناصر ولحنتها لحنًا بدائيًا ورحت أغنيها بنشيج باك ، موقعًا بدقات الأكف ، كانت بعض كلماتها تقول :

حكايتك غريبة ... مصيبتك مصيبة
نهايتك رهيبة ... في يوم الحساب
تضيع لي أرضي ... تبهدلي لي عرضي
وعقلك مفضي ... وشورتك هباب

كنت أبكي من قهر شديد ، قهر الهزيمة ، وقهر الخوف الذي داهمني مع الأحصنة ، ربما لأنهم منعونا من تدمير السفارة الأمريكية ، لتعرف أمريكا أن لا مكان لها في مصر ، « كنت مخطئًا في محاسبة عبد الناصر ، على القهر الأخير في شعري ،

ذلك أن السلطة ـ أي سلطة ثورية أو غير ثورية ـ كان لابد أن تحمي السفارات ، على أرضها » .

الآن أرى أن كان للقهر سبب آخر . إنه الاضطراب الذي يواجهه الجنين فسيولوجيًا لحظة خروجه من الرحم « هو الآخر يبكي » ، لقد كنت ساعتها أخرج منفصلًا عن رحم جمال عبد الناصر ، الأب ، أقطع حبلي السري عن حبله ، عن أبوته ، عن سلطته ، عن إحساسي القديم بأننا مسؤوليته ، لقد أصبح الآن الوطن مسؤوليتنا جميعًا ، انقطع الحبل السري . وفُطمنا وتمردنا على السلطة الأبوية ، وانفصلنا عنها ، كل ذلك في لحظة واحدة .

وكان أنور السادات ممثلاً ـ جيدًا ـ كعادته :

والغريب أن ذلك كان يجري داخلنا بينما أنور السادات ، يرتج صوته متهدجًا وقد أرعشه نشيج البكاء ، يؤكد في الميكروفونات جميعًا التي علقت على مجلس الأمة ، والراديوهات التي ثبتت مفتوحة في كل مكان ، يؤكد لعبد الناصر : « أن الجماهير التي تفصلنا عنك إنما تقربنا منك » ، وكان وقتها يقصد أن عبد الناصر لن يستطيع أن يأتي إلى مجلس الأمة لأن ازدحام الجماهير في كل الطرقات ، يحول بين موكبه وبين الوصول إلى المجلس ، وكان أنور السادات يعلن في نفس الوقت وبنفس البكاء والتشنج ، موافقة الزعيم على العودة إلى السلطة نزولًا على إرادة الجماهير ، بعد أن تغاضى عن رغبته في التنحي .

هل نقول حقيقة ؟!

لعلنا نتوقف هنا قليلًا لنؤكد على حقيقة قد يقرها البعض ، وقد يتهرب منها آخرون وهي أن اضطرابًا شديدًا ، وتخبطًا ، كان قد اعترى تنظيمات جمال عبد الناصر كلها ، الاتحاد الاشتراكي ، التنظيم الطليعي « بصورته القديمة التي

بـدأت ١٩٦٥ » ، ومنظمـة الشـباب الاشـتراكي ، ففـي أمـاكن « حسـب التوزيـع الجغرافي للمكاتب التنفيذية للاتحاد الاشتراكي والمنظمة » ، كان الكلام يدور حـول الانتصار الوشيك ، الانتصار الذي لن يبقي إسرائيل ولن يـذر ، وبقي هـذا الكـلام كلامهم حتى في الأيام الأولى من الحرب ، إلى أن فـاجؤوا الشباب وأعضـاء الاتحـاد الاشتراكي ، بكلام مخالف ابتداء من ليلة ٨ يونيو ١٩٦٧ ، بـدأ بـالتراجع إلى الخـط الثـاني « خـط المضـايق » ، ثـم تـدرج إلى خسران جولـة ، في صراع طويـل ومريـر ، وضرورة إعادة بناء القوات المسلحة لتدخل حربًا في خلال شـهور ، ثـم في خـلال أعـوام ، ثـم في الوقـت المناسـب الـذي سـوف تحـدده القيـادة السياسـية « جمـال عبـد الناصر » ، وفي أماكن أخرى حدث العكس تمامًا .

قال لي عاصم الفولي « مهندس صـاحب شركـة إنشـاءات عقاريـة ناجحـة الآن ، وكـان وقتهـا في عـام ١٩٦٧ الطالـب في الأورمـان الثانويـة ، المسـؤول عـن شـباب المنظمة فيها ، وعضو مكتب التثقيف في قسم الدقي » إن في مساء ٣ يونيو « قبل الحرب بثماني وأربعين سـاعة » ، تـم اسـتدعاؤه في المكتـب التنفيـذي في الـدقي ، وأعلنـوهم أن مندوبًا من اللجنة المركزية للمنظمة سيجيء ، ليقول لهم كلامًا في غاية الأهمية ، ومرت ساعتان ، ثم وصل « يحيي حمزة أحمد حمزة » ، « فيما يذكر عاصم » ليقـول للشـباب : إن عليهم أن يبلغوا كل كوادر المنظمة قبل أن يطلع نهـار ٤ يونيـو ، أن مهمـتهم هـي إبـلاغ الشعب ، بأننا لن نكون البادئين في الحرب ، وإن إسرائيل سـتبدأ ، سـتبدأ ، ولـن يتـأخر الأمر أكثر من ٤٨ سـاعة عـلى أي الأحـوال ، وإننـا سـوف نفقـد (١٠٪) مـن قواتنـا في ضربة إسرائيل الأولى تلك ، وستكون الحرب طويلة ومريرة .

ساعتها تساءل عاصم ببراءة :

هل سيصدقنا الناس في هذا الكلام بعد أن ملأ الإعلام رؤوسهم منـذ مـا يقـرب

من الشهر بكلام عكس هذا ؟!.

ورد عضو اللجنة المركزية :

ليس المطلوب أن يصدقكم الناس ، لكن الناس إذا ما قلتم لهم ذلك ، ووجدوه بعد أيام واقعًا، لن يصدموا .

لا أظن أن هذا الأمر تكرر في مواقع كثيرة .

والحقيقة أن هذا الكلام خطير للغاية فهو يعني أن عبد الناصر بعد اجتماعه بقادة القوات المسلحة يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ ، وبعد أن حذروه من خسائر تلقي الضربة الأولى ، وخصوصًا صدقي محمود قائد الطيران ، وبعد أن رد عليهم جمال عبد الناصر بأن من المستحيل أن نبدأ نحن الحرب لأنه لم يبق لدينا غير خيارين إما أن نبدأ ونحارب أمريكا ، أو تبدأ إسرائيل ونواجهها وحدها ، عبد الناصر بعد أن وضع العقدة في المنشار للقوات المسلحة ، كان قد أحس أنه دخل المصيدة ولن يخرج منها ، وهكذا أراد أن يسرِّب للناس ما يحبط آمالهم التي ارتآها لن تصْدُق ، وأراد في هذا الأمر أن يستغل المنظمة وأظن أنه تراجع ، وكان اضطراب المنظمة بداية نهايتها ، إذ سيكتب التاريخ أن منظمة الشباب أصيبت إصابة قاتلة مع مطاراتنا ، وشهدائنا ـ لحمنا ودمنا ـ الكثيرين ... الكثيرين ... على أرض سيناء .

نسوق هذا الكلام للعباقرة الذين تصوروا أن الاتحاد الاشتراكي ومنظمة الشباب كانوا وراء خروج مظاهرات ٩، ١٠ يونيو ، لنؤكد أن مظاهرات ٩، ١٠ يونيو كانت وراء خروج الشباب ـ الغاضب من يومها وحتى إشعار آخر ، بل ـ وأكثرهم ـ من تنظيمات جمال عبد الناصر كلها .

ضباط القوات المسلحة يصطادون الطلبة :

أيام أخرى لا أنساها من أيام النكسة : هي تلك الأيام التي تدربنا فيها تدريبًا

عسكريًا راقيًا .

كنا قد تركنا كتبنا ، ونسينا الثانوية العامة ، ورحنا إلى المكتب التنفيذي لقصر النيل « وهكذا فعل غيرنا في كل المكاتب التنفيذية » ، نلح على ضرورة تدريبنا عسكريًا .

لم تكن قد مرت أيام على النكسة فلم يجد طلبنا « في تلك اللحظة » أية عراقيل ، « كان الجيش المصري وقتها قد أصبح في خبر كان » ، وكانت الطرق من مدن القناة إلى القاهرة مفتوحة لا يقف فيها إلا قوات الحرس الجمهوري « في مواجهة محاولات غير مستبعدة لاحتلال القاهرة، من عدو أصابه انتصار سهل بالزهو ، وأصابه الزهو بالغرور ».

كانت القوات المسلحة في ذلك الوقت تعيد تكوين وحدات عسكرية جديدة من أفراد نجوا من جحيم سيناء ، والتقطتهم معسكرات الشاردين .

المهم ، أجيب طلبنا « الذي حورب كثيرًا جدًا فيما بعد » وأُخذنا متطوعين إلى مدرسة المشاة بالعباسية « الآن هي عمارات العبور الفارهة لضباط القوات المسلحة » ، لنتدرب « تدريبًا راقيًا » على استخدام السلاح « هكذا أسموه في هذه الفترة » .

منذ اللحظة الأولى التي وضعنا فيها أرجلنا في مدرسة المشاة صرنا صيدًا سهلًا متاحًا ومباحًا للضباط والجنود من أفراد القوات المسلحة الجريحة المكلومة ، أفرغ فينا الضباط والجنود غيظهم من النكات التي أمطرها الشعب المصري عليهم بمجرد أن قبل جمال عبد الناصر العودة إلى كرسي الرئاسة وبعضها أيضًا للتاريخ كان يمس جمال عبد الناصر شخصيًا وأقواها فيما أتذكر النكتة القائلة : عبد الناصر جه يغير التاريخ ، غير الجغرافيا .

كان الشعب « في محاولة لتعذيب الذات » قد ألغى رتب القوات المسلحة

« ملازم ثان ، ملازم أول .... » وحولها إلى « سريع أول ، سريع ثان ، .... » وكان يقصد بذلك أنهم جروا في سيناء من مواجهة العدو .

لم يكن الشعب على حق في نكاته « لكن يشفع للشعب أنه لم يكن قد عرف شيئًا من أسرار النكسة بعد، فلا الجنود ولا الضباط كانوا مسئولين عما حدث ، كانت المسؤولية مسؤولية نظام ترهل ، وقادة عسكريين مارسوا كل شيء في الدنيا إلا الأمور العسكرية فيما تلا كارثة الانفصال السوري عن الجمهورية العربية المتحدة « وحدة مصر وسوريا من ٥٨ــ ٦١» ، لكن الشعب أراد بنكاته أن يجعل للنكسة سببًا يمكن تجاوزه ، فجعل السبب هؤلاء الذين جروا ، والذين سيستبدلهم بمن لا يجرون ، وهذه أولى صفات جلد الذات ، فأنت لا تجلد ذاتك لفقدانك ما لا تستطيع تحقيقه ، بل لفقدانك ما كان مفترضًا أنه في يدك ، وحقيقة فإن النصر كان في يدنا ، وما زال ، كان الشعب ينفي داخله إحساسًا مؤرقًا ، وغير حقيقي ــ بالتفوق الإسرائيلي ، إحساس كان يجري ترويجه من تحت لتحت في هذه الآونة، بحسن نية وبسوء نية أيضًا وكانت السلطة تشارك في هذا الترويج .

ولقد اضطر جمال عبد الناصر في أول خطاب له بعد التنحي « في عيد الثورة ٢٣ يوليو ١٩٦٧م » ، أن يطلب من الشعب التوقف عن التنكيت على إخوتهم وأبنائهم من أفراد القوات المسلحة ، حفاظًا على الروح المعنوية وإرادة الانتصار .

في طوابير التدريب في مدرسة المشاة كان الضباط والجنود يبتسمون لنا في سخرية واضحة صائحين :

أنتم بقى اللي ح تحرروا مصر ؟!!

كنا نقف لنتعلم الاشتباك بالأيدي وبالأسلحة البيضاء « السونكي » والخنجر فنفاجأ بأننا نضرب علقة ساخنة ، وأنهم يشيلوننا ويبهدلوننا بحق وحقيق .

ما تنشفوا ، آمال ح تحرروا مصر إزاي ؟!

وكنا في عز الصيف « يونيو » ، نُترَك في التدريب عطاشى بلا ماء ، وبعد أن أفهمونا أن الماء موجود فقط في جامع المدرسة البعيد عن مكان تدريبنا ، وبين الطابور والآخر كانوا يطلقوننا إلى الماء في الجامع على أن نعود راكضين بمجرد سماع صوت الصفارة ، ثم كانوا يطلقون صفاراتهم قبل أن نصل إلى الماء دومًا !!

وأشياء أخرى كثيرة فعلوها معنا ، كانت كلها لإهانتنا ، ردًا على إهانة الشعب لهم بالنكات الوفيرة « لقد كان أصحاب المصلحة الواحدة يضرب بعضهم بعضًا ، لأن سر النكسة الحقيقي كان لم يزل مخفيًا مجهولاً ، وربما مُتجاهلاً، فلم تكن السلطة وقتها قادرة على إظهاره » ، برغم هذا تعلم بعضنا كيف يستخدم البندقية الآلية (٦٢ , ٧×٣٩) وتعلم البعض الآخر كيف يستخدم الرشاش ، وتعلمنا كلنا استخدام القنابل اليدوية ، والاشتباك بالأيدي وبالسلاح الأبيض ، ذلك أن المدربين برغم كل آلامهم وغيظهم ، أخلصوا في تدربنا ، مستشعرين خطورة المرحلة مستهدفين خير الوطن ، ووجهه الجميل ، نحن أيضًا كنا مصممين على أن نتدرب مهما كانت العراقيل .

والحقيقة أنني « وخلي بالك جيدًا من هذا » قبل انتهاء تدريبي ، اضطررت إلى أن أغادر مدرسة المشاة وأعود إلى البيت ، إذ كانت قد بقيت أيام ثلاثة على الميعاد الجديد الذي حددوه لامتحان الثانوية العامة ، والذي عرفنا به في المعسكر متأخرين للغاية ، وعن طريق الصدفة البحتة (قبل الامتحان بيومين فقط، برغم أنهم في المعسكر كانوا يعلمون أن بيننا طلبة في الثانوية العامة) .

علي صبري ، هو علي صبري ، مهما حدث :

ويوم أخذ لم أنسه من أيام النكسة .

في المكتب التنفيذي ، جمعوا الذين أتموا تدريبهم الراقي على السلاح واستدعوني معهم ، قلت في براءة :

أنا لم أتم تدريبي « ألم أقل لك خلي بالك من هذه » .

معلش ، خد .

أعطوني رشاشًا فاندهشت ، وقلت في براءة أيضًا :

لكني كنت أتدرب على الآلي (٦٢ , ٧×٣٩) .

معلش ، يالا بينا .

أوقوفونا في جاردن سيتي ، أمام إحدى قصورها القريبة من الكوبري الصغير الذي يقود إلى كلية طب قصر العيني ، وقال لنا المندوب : إن مهمتك حماية ذلك الكوبري من أعمال التخريب التي يزمع العدو القيام بها لترويع الجبهة الداخلية ، و..... وصحنا وقد أصبحت دهشتنا أكبر من أن تتحمل :

لكننا نقف بعيدًا عن الكوبري ، نقف بعيدًا عن النيل ، نقف عبر الكورنيش على الرصيف المقابل لرصيف النيل .

معلش ، شدوا حيلكم .

مر وقت طويل ونحن وقوف ، كل منا يصرخ في داخله صوت يرج حناياه رجًا بالغضب ، « الأمر صوري ، الأمر لا جدية فيه » ، لكن أحدًا منا لم يهمس للآخر بالصرخات داخله ، وفجأة مرت بنا دراجة وصاح فينا راكبها :

السيد علي صبري ح يوصل بعد دقائق ، رتبوا أنفسكم .

لحظتها تركنا السلاح بعد أن سندناه على سور القصر الفاره ، وجلسنا على السور معتمدين أن نشوّه صورتنا ، التي سيراها السيد علي صبري ، لا أن نرتبها كما أمرونا ،

لقد عرفنا ما فيها ، الأمر تشديد خانة أمام علي صبري الذي يسد بدوره خانة أمام جمال عبد الناصر ، ها نحن ذا نقف بعيدًا عن النيل ، الذي سنحميه من المخربين ، لكي نكون في الناحية التي ستمر بها سيارة علي صبري « أي جرأة يمتلكها هؤلاء الناس » لقد أثبتت لنا جرأتهم في إيقافنا بعيدًا عن الهدف الذي نحميه ، أن علي صبري نفسه يعلم بصورية الأمر ، وأنه يسد خانة عند جمال عبد الناصر الذي لا يمكن أن يجهل صورية تلك الإجراءات .

وللحقيقة فقد كان السؤال يستفز ضيفنا ، ويحرق أعصابنا .

ألا يعلم جمال عبد الناصر بصورية الأمر ، أم هو يعلم وهو الآخر يسد خانة أمام الشعب ؟! الآن أعرف الإجابة ، وهي أن المكتب التنفيذي كان يسد خانة أمام علي صبري ، وعلي صبري كان يسد خانة أمام جمال عبد الناصر ، الذي كان يسد خانة بدوره أمامنا نحن الراغبين في الدفاع عن وطننا .

فجأة صحنا مقتنعين غاضبين :

هؤلاء الناس لن يتغيروا .

برتقالة د. مفيد شهاب :

على ذكر الواقعة الفائتة ، أذكر أن طارق النبراوي « من القيادات البارزة لحركة الطلاب ، المنتمين إلى التنظيم الطبيعي » ، قد حكى لي « وضمت الورقة التي أرسلتها المجموعة البارزة من نفس التنظيم إلى روز اليوسف ، تعقيبًا على المقالات التي نشرتها بالمجلة نفس الحكاية ، وهي الورقة التي آسف لأنني لم أستطع استعادتها من المجلة ، وكان قد أعدها طارق ، وأحمد الحمدي ، وبسام مخلوف وماهر مخلوف وآخرون » .

قال طارق : إن الدكتور مفيد شهاب (كان واحدًا من أمناء الشباب في المنظمة

وقتها» ، قد جمع عددًا كبيرًا من قيادات المنظمة بمنطقة شرق القاهرة ، وعلى ما أذكر في « نادي شل » بمصر الجديدة مع الخيوط البيضاء الأولى لفجر يوم تال مباشرة للهزيمة النكراء ، وقال لهم : إن مهمة كبيرة في انتظارهم ، وأطلق على المهمة اسم « البرتقالة » ، انتظر الشباب المهمة ، وطال الانتظار لأكثر من اثنتي عشرة ساعة ، عاد إليهم الدكتور بعدها ، ليعلمهم أن المهمة قد ألغيت .

هكذا دون أن يعرف أحد ما هي المهمة التي كانت على وشك أن تبدأ ، ولا لأي الأسباب ألغيت ، فيما بعد علموا أن المهمة كانت إعطاءهم سلاحًا ، ونقلهم إلى طريق القاهرة ـ السويس الصحراوي ، لتغطية النقص في القوات المسلحة الحامية للطريق في مواجهة أي محاولة قد يقدم عليها اليهود لاختراقه واحتلال القاهرة ، وقال طارق حين علمنا فيما بعد بطبيعة المهمة ، أصابتنا دهشة عارمة ، فلم يكن أي من المجموعة قد تلقى تدريبه على السلاح بعد .

ولعلي أتسائل الآن : أكان من الممكن أن يزجوا بشباب غير مدرب على استخدام السلاح في مهمة صعبة كهذه ؟ أم كانت تلك الواقعة ـ هي الأخرى ومثلها كثير ـ سد خانة أمام علي صبري ، الذي يسد خانة أمام جمال عبد الناصر ، الذي ـ بدوره ـ يسد خانة أمامنا نحن الشباب المطالب بالتدريب العسكري ، المصمم على الدفاع عن وطنه ؟

برغم كل شيء ، كنا نستثني جمال عبد الناصر :

هل كانت نكسة يونيو ١٩٦٧ م ، هي التي ذهبت بي ، أنا القاهري الذي قضيت عمري كله في فصل المتفوقين ـ إلى كلية الطب بالمنصورة ؟! لِمَ لا ؟! لقد ذهب بي النكسة إلى أبعد من ذلك بكثير .

كان قد تكون داخلي « فرحت فيما بعد ، عندما عرفت أن داخلي يمور بما يمور به داخل الأغلبية الساحقة من جيلي » ، إحساس بضرورة أن نفعل شيئًا من أجل

البلد ، وضد النظام ، ألم تقل لنا الأحداث بعد النكسة ، إنهم لن يتغيروا .

كانت وجوه النظام ما زالت نفس الوجوه ، مع تغيير طفيف يثبت القاعدة ولا ينفيها ، وكانت تصرفاتهم هي نفسها التي قادتنا إلى النكسة ، دون أي تغيير .

وكنا نستثني جمال عبد الناصر ، لم نكن نربط بين عبد الناصر ونظامه .

صحيح أننا كنا قد قطعنا حبلنا السري معه ، انفصلنا ، وكنا نُحمِّل عبد الناصر المسؤولية عن تهرؤ نظامه، خصوصًا بعد أن بدأ يفتضح أمر المؤسسة العسكرية، والمخابرات الحربية التي تغلغل في أرجائها الفساد وتغلغلت في نسيج الوطن بفسادها ، بل وصحيح أيضًا أننا لم نكن مقتنعين مائة في المائة بقدرة عبد الناصر على إحداث التغيير المطلوب ، لكننا ظللنا متعشمين خيرًا فيه وفي أنفسنا ، وكانت هذه ازدواجية لم يستطع أغلبنا التخلص منها إلا بعد مظاهرات نوفمبر ١٩٦٨ .

وكانت أيضًا ـ هذه عين الازدواجية التي كنا نعاني منها .

كنا نريده أن يصبح كما نريده !!

لم نكن نستطيع أن ننسى أو نتناسى أن عبد الناصر كان ـ عن حق ـ رجلًا يمثل كل ما نحلم به ، حرية الوطن ، إنجازات عديدة لفقرائه ، انتماءً عربيًا هو الحلم في عالم الوحوش الكبيرة ، دائرةً واسعة من المقاتلين الشرسين ضد استعمار عالمي تقوده أمريكا التي توحشت بعد الحرب العالمية الثانية ، وأرادت أن تجني وحدها ثمار انتصار ، رأت أنها كانت السبب فيه ، وأن أحدًا من حلفائها لا يستأهل أن يجني شيئًا من ثمار ـ هذا الانتصار .

لم نكن نستطيع أن ننكر كل هذا وما هو أكثر منه .

لكن عبد الناصر كان بعيدًا ، كانت تفصله عنا مسافة كبيرة ، تمتلئ بالعتاة من

البيروقراطيين الذين يتخفون في مسوح الثوريين ، والذين يؤكدون دومًا أنه ليس في الإمكان أحسن مما كان ، وكنا الذين يتخفون في مسوح الثوريين و نريد الأحسن ، وفي الأحسن كنا واثقين من الإمكان .

كنا قد رفضنا أن تكون المسؤولية مسئولية عبد الناصر ـ وحده ـ في التاسع والعاشر من يونيو ، وكان الوطن قد أصبح مسؤوليتنا من تاريخه ، وغدًا يراودنا حلم ـ والأيام تكر مبتعدة على نكسة يونيو ـ أن يصبح عبد الناصر ـ نفسه ـ مسؤوليتنا .

يا رجل ، قل كلام غير هذا !!

صديق شاعر في كلية طب المنصورة قال لي ضاحكًا :

عبد الناصر مسئوليتنا ؟

لم لا .

يا راجل !!

قلت لصديقي :

ليست هذه هي المرة الأولى ، التي يكون فيها عبد الناصر مسؤولية الشعب، لقد كانت الدنيا كلها ضد عبد الناصر ، بعد أن أمم القناة وطلع عبد الناصر باكيًا إلى منبر الأزهر ، فأنزله الشعب عملاقًا أسطوريًا ، ونفخ في روحه بعدها استطاع جمال عبد الناصر أن يواجه الدنيا التي تتحدى طموحاته ، لقد حقن الشعب في وريده ترياق الاستطاعة ، وبدد وحشته وسط أعضاء مجلس الثورة الذين طالبه بعضهم وبعض الباشوات القدامى أيضًا، بأن يسلم نفسه للسفارة الإنجليزية معلنًا توبته عن الحلم العربي الجميل ، سانده الشعب فاطمئن واستطاع ، أكثر من هذا عندما انكسر الجيش المصري بين فكي الرحى ، إسرائيل من الشرق ، وإنجلترا وفرنسا ـ

الإمبراطوريتين ـ خلف الجيش غربًا في بورسعيد ، تولى الشعب مسؤولية الوقوف للعدوان حتى انتصرت إرادته على إرادة العدوان ، وانتصر جمال عبد الناصر على رغبة الإمبراطوريات الكبرى في أن تعيد الأمور لما كانت عليه ، انتصر جمال عبد الناصر بالشعب ، برغم انكسار الجيش ، بل وبرغم اهتزاز النظام ومحاولة الأفاعي أن تعود لتطل برؤوسها الكريهة ، ولم يعد الأمر لما كان عليه ، وأصبحت القناة لنا وللأبد ، ثم ألم نكن نحن في مظاهرات ٩، ١٠ يونيو درع عبد الناصر الذي يحميه من الاستسلام حتى ولو لبس الاستسلام للغرب ثوب زكريا محيي الدين الذي أصبح مرشحه ليرأسنا كي يتفاهم معهم .

تساءل صديقي متحرجًا :

ألا ترى أنك تبالغ ؟

قلت ضاحكًا :

اسأل إسرائيل !!

إسرائيل .

قلت لصديقي : إن إسرائيل وعت الدرس ، ولهذا توقفت عند قناة السويس ، بينما الطريق مفتوحة لها إلى القاهرة ، توقفت حتى لا تواجه الشعب مرة أخرى ، بعد أن استطاعت أن تهزم الجيش .

قال صديقي متحيرًا :

الشعب ، لا الطلبة من سني ومن سنك !!

وقلت لصديقي :

لابد أن يبدأ أحد .

وزاغت عينا صديقي ، ولابد أنه رأى في هذه اللحظة أن عيني زائغتان ، كنا نحتاج لأن نصدق أنفسنا « ولقد صدقناه فيما بعد » .

أما في وقتها فقد كان بداخلنا قناعة تؤرقنا ، وكان خوفنا بداخلنا أيضًا يتخذ صورة يأس الجميع الذي يعبر عن نفسه في جلد الذات ، كان بداخلنا خوف الجميع أيضًا ، خوفهم من أن الحجة جاهزة لضرب أي تحرك ، طبعًا لأن البلد في ظروف تاريخية صعبة « وآه من هاتين الكلمتين ، إن جيلنا الذي جاء بعد الجيل الذي جاء في موعده مع القدر ، كان على موعد مع الظروف التاريخية الصعبة ، لا أذكر أننا رأينا البلد أو سمعنا عنه إلا في ظروف تاريخية صعبة ، لم نتابع خطابًا رئاسيًا إلا وكان في نظر الإعلام تاريخيًا ، وكان لشرح المرحلة النضالية الصعبة!! » . لكننا وبرغم خوفنا لم نفقد التصميم ، وظل السؤال المؤرق داخلنا : كيف نفعل ما نريد ؟

المحللون يستكثرونها علينا !!

الحقيقة أن حركة الشباب (٦٨ ـ ١٩٧٧) ظُلمت ظلمًا بينًا على أيدي المحللين ، وأقصد ـ من المحللين ـ كل من نفترض فيهم حسن النية بالطبع .

قال المحللون : وكان كبير المنظرين فيهم الأستاذ محمد حسنين هيكل » : إن حركة فبراير ١٩٦٨ ، جاءت كرد فعل للأحكام الصادرة ضد قادة الطيران الذين يتحملون المسؤولية عن النكسة ـ كما أحب أن يصورهم النظام ـ والتي رآها العمال والطلبة ـ والشباب ـ أقل مما يجب .

وقالوا : إن حركة نوفمبر ١٩٦٨ جاءت كرد فعل لقرار وزير التعليم « د. حلمي مراد » في ذلك الوقت بتحديد عدد مرات للرسوب ، في محاولته لتصحيح أوضاع التعليم ، بعدها يحرم الطالب من مواصلة التعليم واستكمال ما بدأه .

وقالوا عن حركة يناير ١٩٧٢م : إنها جاءت رد فعل لخطاب السادات الذي

أعلن فيه أنه كاد يحارب في ديسمبر ١٩٧١م « عام الحسم الذي أعلنه بنفسه » ، لكن الضباب عاقه عن عبور القناة ، ولم يقولوا شيئًا عن حركة يناير ١٩٧٣ واعتبروها توابع لزلزال ١٩٧٢ ، وقالوا عن انتفاضة يناير ١٩٧٧ التي كان فيها دور كبير للطلاب : إنها كانت نتيجة ارتفاع أسعار كثيرة في وقت واحد ، وهكذا لم يكن الشباب إلا محتجين في أحسن الأحوال ، ومحتجين ـ فقط على أحداث صغيرة .

والحق أن المحللين ـ حسني النية ـ كانوا وما زالوا ، وربما لأسباب استقوها من تجارب سابقة ـ غير متصورين ـ أن يقوم الشباب بحركة شعبية متصلة ٦٨ ـ ١٩٧٧ ، لها أربع قمم ، قمتان استهدفتا المشاركة الإيجابية في فبراير ١٩٦٨ وفي يناير ٧٢ ـ إلى مارس ١٩٧٣م ، وقمتان غاضبتان في نوفمبر ١٩٦٨ وفي يناير ١٩٧٧ ، وأن الطلاب كانوا في التسع سنوات مصممين على أن يصلوا بحركتهم إلى كل مطالبهم ، تلك المطالب التي تحقق أحدها بصورة باهرة وتحقق الآخر بصورة باهتة ، أما الثالث الذي انتكس ، فكان فاتحة لانفجارات بركانية من العنف الجموح الذي ما زال يهددنا حتى إعلام آخر .

ولكن لماذا نستبق الأحداث ؟!!

في فبراير ١٩٦٨ ، كنت في طب المنصورة « كما قلت » :

وكنا في السنة الإعدادية ـ نتلقى محاضرة في الكيمياء الحرارية ، وكان أن دق باب المدرج في عنف شديد ، ولما فتح الأستاذ الدكتور الباب غاضبًا ، فوجئ بزميلنا أحمد صقر « رئيس اتحاد طلاب الكلية ، وعضو اتحاد الطلاب على مستوى الجمهورية وصديقي الجميل الذي يعد واحدًا من أقوى الرجال ، والرجال قليل » ، يكلمه فيما لم نسمعه نحن بدقة ، ثم فوجئنا نحن بالأستاذ الدكتور ، يدفع أحمد صقر خارج المدرج ، ويغلق الباب في عنف ، لنعود ونفاجأ ـ الأستاذ الدكتور وطلبته ـ

بأحمد صقر يقفز من النافذة داخلًا المدرج ، متجهًا إلى المنصة حيث يقف الأستاذ الدكتور الذاهل ، وبأنه يخطب فينا ـ في عصبية شديدة ـ طالبًا منا أن نخرج جميعًا وأن نلحق بطلاب الكلية في مبنى الجامعة الجديد « كانت الكلية موزعة في ثلاثة مبان في تلك الفترة ، وكان مبناها ـ الحالي ـ لم يزل تحت الإنشاء » مبررًا طلبه ، بأن الذين أضاعوا البلد ، يحاولون الآن أن يصوروا الأمر على أنه خطأ بسيطًا ، لأفراد قليلين يستحقون عنه عقوبات تافهة ، وأن عمال حلوان عندما رفضوا الأمر ، وخرجوا متظاهرين انهال عليهم رصاص الشرطة من كل صوب .

خرجنا وراء أحمد صقر إلى مبنى الكلية الجديد ، وهناك ، وقف بيننا زعيم كان رياضيًا ـ فقط حتى لحظة وقوفه بيننا ـ وكنا نسميه لهذا ـ وما زال اسمه « الكوتش » ـ كان الكوتش يصيح في الجموع :

لازم نعمل مظاهرة .

وخرجت المظاهرة من كلية طب المنصورة عكس الاتجاه « معنويًا ، وفعليًا كانت عكس الاتجاه » .

لقد كان اتجاه السلطة وقتها يعمد إلى تصوير النكسة ، وكأنها حادث عرضي تسبب فيه قادة الطيران الذين تركوا المطارات عارية من الحماية النشطة ، والطائرات كالبطات على الأرض ، فانقضت عليها إسرائيل بسلاحها الجوي المدعم بالطيارين من كل بلاد الغرب [1] ، وهكذا فقدت جيوشنا الحماية الجوية في سيناء ، وأصبحت لقمة سائغة ، لحدآت تنقض من الجو بمناقير من نابلم حارق ، وكأن حريق العطش

(١) لا يظن أحد أن موضوع استعانة إسرائيل بالطيارين من كل بلاد الغرب موضوع هين ، لقد قال لي اللواء طيار « جبر علي جبر ، وهو خبير عسكري ، إن مفاجأة ٧٣ لم تسمح لإسرائيل بأن تستدعي طياري الغرب ولهذا انكشف مستوى طياريها في الأيام الأولى من حرب أكتوبر العظيمة .

لا يكفي قوات انفرط عقدها فراحت تتخبط في التيه .

كان النظام يعمد إلى تصوير الأمر وكأنه مجرد خطأ قادة الطيران ، وخطأ مخابرات عامة خرجت عن خطها المرسوم .

ولم يكن الأمر كذلك في رأينا ، لهذا خرجنا ضد الاتجاه السائد معنويًا .

كنا نريد أن نتجه إلى المحافظة ونرابط أمامها لنعلن رأينا ، وفوجئنا أننا نمضي أيضًا في عكس الاتجاه الذي يقودنا إلى المحافظة ، رحنا نشق المزارع إلى المعهد الزراعي « كلية الزراعة فيما بعد » ومنه إلى المعهد التجاري على نيل المنصورة الجميل « كلية التجارة فيما بعد » ، لنقابل المعاهد الدينية التي جاءتنا فعلًا وقولًا من الناحية الأخرى .

وأستطيع أن أؤكد الآن أن خوفنا كان وحشًا يصيب حلوقنا بالجفاف ، كانت شمس فبراير كابية ، ولم تكن السبب وراء جفاف حلوقنا ، كان السبب هو إبحارنا الغاضب في بحر لا نعرف إلى أين سيقودنا ، ولا متى ينفتح علينا ليبلغنا ، بحر المعارضة العلنية لنظام جمال عبد الناصر الذي لا يرحم المعارضين ، وكنا نعبر عن خوفنا برعاية زميلاتنا اللاتي نخشى أن يتبهدلن ، لقد أجلنا خوفنا وكأننا لا نخاف إلا عليهن ، وكانت زميلاتنا « وكم كن عظيمات زميلاتنا هؤلاء ، ما زلت أذكر منهم نجوى ضيف ، ومنى الرقيقة الحاملة ، وجين الشناوي ، وناهد صبحي وفاطمة أبو العنين ، وكلهن طبيبات ـ كبريات الآن ، يعلن أنهن لا يقبلن أن يتركننا وحدنا فيما نحن فيه ، وكأنهن لا يخفن إلا علينا « في ذلك الوقت لم تكن الحياة الاجتماعية في المنصورة تسمح لنا بأن نكلم زميلاتنا في الشارع ، وكنا إذا ما قابلناهن عرضًا سارعنا بالدخول إلى شارع جانبي ، وسارعن هن أيضًا بنفس الأمر ، لكن كان للمظاهرات منطق آخر » ، ولقد كانت مداراة الخوف الأصلي بخوف مصطنع عاملًا

عبقريًا في إعطاءنا الجرأة على الإبحار في بحر الظلمات بحثًا عن فجر وراءه .

لقد كنا نكسر جدار خوف ظل يزداد سمكًا منذ أحداث مارس ١٩٥٤ ، ولمدة أربعة عشر عامًا ، لقد ربانا أهلنا على أن من يعارض النظام فلابد أن يذهب به النظام إلى ما وراء الشمس ، حيث لا يراه أحد ولا يسمع به أحد ، ولا يجد إلا الضياع والخراب والتعذيب المهين ، وربما الموت بلا ثمن ، وكانوا يتصعبون ثم يكلمون ويباليته يضيع وحده ، لا ، أقاربه من الدرجة الأولى والثانية والـ.... أما الصغار فسوف ينتهي أملهم في دخول كليات الشرطة والحربية ، والطيران والفنية العسكرية وفي الالتحاق بوظائف محترمة أو في الحصول على بعثات تؤهلهم لشهادات علمية مرموقة ، أما أقاربه من بعيد فلن يتبوأ أحد منهم منصبًا كبيرًا أبدًا .

لقد نقل الآباء خوفهم إلينا وأصبحنا نخاف ـ فوق خوفنا على أنفسنا ـ عليهم ، وأذكر أننا جعلنا موقع البنات في قلب المظاهرة ، وسرنا حولهن جميعًا ، وسرن داخلنا يشددن من عزيمتنا .

وراحت هتافاتنا تتعالى ، فكانت المفاجأة أن خوفنا راح يبهت وتتضاءل قامته التي كانت تسد طريقنا عندما خرجنا .

كنا نهتف ضد العسف والبطش اللذين واجهت بهما السلطة عمال حلوان الذين أرادوا أن يعلنوا رأيهم ، وكأننا ـ أو في الحقيقة ـ كنا نهتف ضد كل من سيمارس عسفًا ضدنا ، وقد خرجنا ـ كالعمال ـ نريد أن نعلن رأينا ، ولم تكن هتافاتنا ضد المتسببين في كارثة الطيران وحدهم ، لكن ـ أيضًا ـ ضد سلطة تريد أن تخفي مسؤولياتها عما حدث لنا ، وعما حدث للطيران ، وأن تلون مصير كل محاولة للاعتراض على أفعالها التي جلبت لنا النكسة بدهان من دماء العمال الشرفاء لقد كانت السلطة في تهربها من المسؤولية تحاول أن تعيدنا إلى تفكير بال ، أظهرت النكسة مدى ما فيه من عوار ،

وهو أنها فعلت ما يجب أن تفعله كله ولم يكن على حائطها غبار ، والمتسببون في النكسة ها هي ذي تحاسبهم ، أما التغيير إلى الأفضل فلا يجب أن يكون في بال أحد ، ستعود السلطة ـ فيما بعد ـ وتحدده وترسم ملامحه كلها ـ دون مساعدة من أحد ـ وسوف تمارسه بالنيابة عن الناس ، لتستمر « ديمقراطية الموافقة » تلك الديمقراطية التي نظر لها محمد حسنين هيكل في مرحلة الشرعية الثورية ، وهي تعني أن السلطة الثورية تعرف ما يحتاجه الشعب وتفعله، ولا دور للشعب إلا الموافقة ، وأن رأس العمال الطائر يجب أن يعلمنا مصير من تسول له نفسه بأن يفكر فيما هو أكثر من الموافقة .

هكذا أرادت السلطة أن تقنعنا أن الجناة قد عوقبوا وانتهى الأمر ، وكنا مصممين على أن أمرًا لم ينته ، بل أيضًا على أن أمرًا آخرًا أكبر لابد وأن يبدأ .

كانت هتافاتنا كلها تطالب بالتغيير ، بالديمقراطية ، بحقنا في المشاركة حتى لا نفاجأ في أية لحظة بهول جديد ، بمحاكمة كل المسؤولين عن النكسة ، لا قادة الطيران وحدهم ، أو قادة الطيران وقادة المخابرات العامة وحدهم .

سؤال مؤرق ، في وقت حرج :

وفي مظاهرات المنصورة ، ووسط الحماس الجارف سألت نفسي سؤالًا ولم أجد له إجابة كيف سيتصرف أهلي إذا ما قبض عليَّ وأنا بعيد عنهم؟ هكذا في المنصورة ، وفجأة اقتحمت زميلة عزيزة مكان خطواتي القلقة في المظاهرة .

وجدتها أمامي تسير بظهرها ، وبين الهتاف والآخر تقول لي :

أنت لازم تنزل مصر حالًا دلوقت .

صحت ، وكأنني لم أكن أفكر في نفس الأمر منذ لحظة واحدة :

لا ، لن أترككم .

لن تترك من ؟

لن أترككم وحدكم .

لكنك لم تخرج من أجلنا ، لقد خرجنا جميعًا من أجل مصر .

كنت أحاول إقناع نفسي بالبقاء في المنصورة ، فقلت :

إذن سأبقى معكم جميعًا من أجل مصر .

وإذا قبضوا عليك معنا ؟

قلت ولكن بغير قوة ، كانت قد داست بكلماتها على كل أعصابي العارية :

اللي يحصل يحصل .

كنت شديد القلق على أهلي ، وكانت زميلتي العزيزة تعاني نفس القلق ، إنهم لن يعرفوا أين أنا ، ولن يمتنعوا عن « الشحططة » ورائي « كانت تطل من رأسي الظنون تلوموني وتشد أذني على رأي الراحل العظيم كامل الشناوي » وألف حكاية ـ سمعتها من قبل ـ عمن ـ « تشحطط » وراءهم أهلهم ترد على ذهني وتتضخم جانبي وداخلي .

وقلت لزميلتي العزيزة العظيمة « وهي أستاذ في كلية الطب الآن ، لا أعرف هل يرضيها أن أقول اسمها أم ستغضب » كاشفًا عن ضعف ينهشني من داخلي :

خلاص ... ح أنزل القاهرة .

وركبت القطار وركبني الهم لإحساسي بأنني تركت زملائي الذين أحببتهم دومًا ، وتركت زعماء المظاهرة ، أحمد صقر العظيم ، وسعد الشريف الفنان الجميل الذي أكرمني دائمًا برسومات لأشعاري ، والكوتش لمصير لا أدري أبعاده ، ولم يفارقني همي إلا مع زملائي في مظاهرات القاهرة ، التي كانت حواديتها أكثر من أن تروى ، فماذا لو أضفنا إليها حكايات الآخرين ؟

لكنني لابد وأن أقول هنا : إن حكاية في مظاهرات ١٩٦٨ ، حكاية لم تكن أولى الحكايات في مظاهرات القاهرة ، ولم تكن آخرها ، تطفو من الذاكرة ، تستفزني أن أبدأ بها فقد كانت ولا زالت شديدة الدلالة على ما رسم خطواتنا فيما بعد تلك الخطوات، التي انطلقت وقد أثقلها الخوف الموروث ، الخوف الذي كبل أية محاولة للمعارضة السياسية ، إذا ما صاحب هذه المحاولة صوت جهير يعلنها على الملأ .

حكاية شنطة هاني عنان :

في كلية الطب جامعة القاهرة ، كان هاني عنان « صاحب ومدير شركة كبرى لتجهيز المستشفيات الآن » ، شابًا ملفتًا للنظر بقامته الطويلة للغاية ، برداء الباسكت بول الذي كثيرًا ما ظهر به في الكلية ، بابتسامة لا تفارق وجهه ، تجبرك على ألا تشيح بوجهك بعيدًا عنه ، بسكناه الدائمة في أرض الحلم حيث المرح والتجارب اللاسعة ، كالشطة السودانية ، حيث الفن ، وقصائد وكلمات نزار قباني ، والسينما ، والأغاني ، كان هاني مترددًا ، حائرًا ، لا يعرف كيف يصل إلى قرار بالمشاركة أو بعدم المشاركة .

وكانت لنا زميلة غاية في العقل والظرف اسمها منى كامل « طبيبة تعيش الآن مع زوجها الشهير جدًا ـ بين كل من زاروا ألمانيا ـ في ألمانيا » وقد لاحظت منى حيرة هاني التي كان يصبها كلها في مشكلة فرعية .

إذا خرجت في المظاهرة أين أترك الشنطة ؟

« لم تكن الشنطة تفارق هاني أبدًا فقد كانت تضم ملابسه الرياضية وفي بعض الأحيان كتبه!!» .

وصاحت منى :

الشنطة هي المشكلة ؟

رد هاني في حيرة بريئة ، أو براءة حائرة :

آه .

وقالت منى :

إذا كانت هي المشكلة هاتها وأنا ح أتصرف فيها .

وخرج هاني عنان في المظاهرة بعد أن حلت مشكلة الشنطة « العويصة » وأخذتنا المظاهرات ، أو كما يقولون مظاهرة تشيلنا ، ومظاهرة تحطنا ، حتى وصلت إحدى المظاهرات « فقد تفرعت المظاهرات إلى أماكن كثيرة » إلى خلف مستشفى الهلال الأحمر على ما أظن ، وأطلقت الشرطة بنادقها علينا ، ظننت أنهم يطلقون الرش « الخرطوش » ، لكني وجدت هاني وقد وقع بيننا ، « كان الوحيد الذي وقع » وقد اخترقت رصاصة حقيقية حوضه من ناحية ، وخرجت من الناحية الأخرى ، وحملناه إلى المستشفى في ذهول تام .

في المستشفى زارته منى وفاجأها هاني ضاحكًا بقوله :

إيه اللي خلاك تاخدي الشنطة يا منى .

والحقيقة أن منى لم تكن قد أخذت شنطة هاني عنان وحدها ، كانت قد أخذت حيرته ، وخوفنا جميعًا من الصدام ، أشياء أخرى .

وهنا نتوقف لنفسح المجال لصناع الأحداث في ١٩٦٨ ، فقلمي يريد أن يكتب بألسنتهم ، قلمي يريد أن يكون جسرًا لصوتهم الجميل ، أن يكون له هذا الشرف .